محي الدين القليبي(*)

الأخ عصام العطار

نشر هذا المقال في جريدة الشهاب الدمشقية سنة ١٩٥٤م ، ونعيد نشره الآن بمناسبة ما يمر بتونس من أحداث ، ليتعرّف الجيل الجديد في تونس إلى أحد زعماء بلاده الحقيقيين ، وإلى نموذج الزعامة الإسلامية كيف يكون ، لعله يميز بذلك بين الغث والسمين ، ويأخذ طريقه الصحيح مع المجاهدين الواعين المخلصين

لقيني –منذ سنوات– الأستاذ عبد الرحمن الباني فسألني :

هل زرت السيد محي الدين القليبي ؟

قلت : لا

قال : يجب أن تزوره

قلت : أنا والله سيء الظن بالزعماء ، لا أحب أن أزور أحداً منهم ، إنهم كبار عن بعد صغار عن قرب ، وهـــم –في الأكثر– دجالون ..

قال الأستاذ الباني : إنّ السيد محي الدين ليس كمن عرفت من الزعماء ، إنه يمتاز بالإيمان الصادق والوعي العميق والجهاد الحق .. وهو خليق بأن تراه وتتعرف إليه .

قلت : لعلي أفعل –إن شاء الله–

ولقد شاء لي الله أن أراه وأتعرف إليه ولكن بعد أمد طويل من ذلك اللقاء .

رأيته أثناء انعقاد المؤتمر الإسلاميّ في القدس سنة ١٩٥٣م فتذكرت وصية الأستاذ الباني ..

ووقفت في زاوية من زوايا ردهة فندق القلعة حيث انعقد المؤتمر أرقبه وقد طلع بقامته الطويلة الهزيلة المحنية قلـــيلاً عند الكتفين ، ووجهه المستطيل الحزين ، وجبهته الواسعة ، وعينيه الصغيرتين المفكرتين ، ولحيته القليلة التي خطهـــا الشيب ..

وعرفت القليبي بشكله ثم عرفته بحقيقته

كان يجلس وراء الصفوف في الحفلات والاجتماعات حيث يتقدم الآخرون ..

وكنا نفتقده في مجالات المجاملة والظهور كما نفتقد بعضهم في مجال العمل المستور .

وإذا كان هنالك من حضر المؤتمر لإبراز شخصه فقد حضر هذا الرجل لخدمة قضيته فهو يطلب دوماً العمل المنتج ويؤثر السبيل المثمر فلا تراه إلاّ حيث النظر الجاد والتنظيم العملي والتنفيذ السريع .. لقد كان رائعاً حقاً هذا (الشيخ) الطويل الهزيل الحزين ، كان أعظم من المظاهر التي استولت على بعض الحضور فحولتهم إلى ممثلين ومهرجين ..

وكأنما كان به بأس من جيل مضى وأمل في جيل أقبل ، والتقيت معه بالمشرب وبعض الرأي فولدت بيننا صـــلة كأخلص وأعمق ما تكون الصلات بين الناس .

وأجلس الآن لأكتب عنه ، وأستعيد ماضي ذكرياتي المرتبطة به ، فتتجسم أمامي شخصيته الفذة التي طالما عشت معها وعاشت معي منذ انطوت من العالم الخارجي

ولن أستطيع في هذه الساعة القصيرة ، وبهذه الصفحات القليلة أن أصور القليبي ..

إنما أرسم –في حدود ذكرياتي الشخصية– بعض ملامحه البارزة لأقدمها إلى الشباب المتعطش إلى النظرة الإسلاميّة الخالصة ، والقيادة الواعية ، والاستشهاد في الجهاد قدوة حسنة قلما يكون لها مثال

لقد امتاز القليبي بنظرة إسلامية خالصة ؛ وما أصعبها هذه النظرة ! وما أقل ما نجدها بعد أن دهمنـــا الاســـتعمار بغزوه السياسي والفكري ، وقسم وطننا الكبير فأوجد النظرة الوطنية ، والنظرة القوميـــة ، والنظـــرة الـــشيوعية .. وفرضها على المسلمين ، فهم (مسلمون) نظرتهم غير إسلامية إلى الأمور !!

وليس بالقليل أن يتحرر الإنسان من هذا الواقع السياسي والفكري كما تحرر الأستاذ القليبي

تكلم مرة في جمهور ضخم في قاعة الجمعية الغراء[1] بمناسبة حلِّ جماعة الإخوان في مصر سنة ١٩٥٤م فأعلن أنه لا يقبل أن يقال : هذه قضية داخلية لا يتكلم فيها غير مصري ، وأنه لا يعتـــرف بحـــدود الأرض ولا اللغـــة بـــين المسلمين ، ولا يؤمن إلاّ بوطن واحد هو وطن (الدين) لا وطن العصبية و(الطين) .

ثم عرض لحل (الإخوان المسلمين) فوصل هذه القضية الجزئية بالمشكلة الإسلاميّة الكبرى ، وعاد بنا إلى جـــذور هذه المشكلة في الزمان والمكان ، وإلى ظواهرها في الماضي والحاضر ، وإلى نتائجها المنتظرة في المستقبل .. ثم أشار إلى السبيل الصحيحة في العمل ..

وكان يتكلم بهدوء ووعي وإخلاص يحسه المستمعون وقد ارتفع بنظرته الإسلاميّة الخالصة على العصبية الوطنيــة والقومية ، وعلى الظروف السياسية ، وعلى الأفكار الشائعة ، والمقاييس الفاسدة .. حتى لقد ظهر لنا غريبــاً عــن جوّنا ، وبدا لنا على مسرح القاعة مرتفعاً عن واقعنا ، كأنما يتلقى القول من العالم العلوي فوقنا ، ثم يلقيــه بحــرارة وبساطة وثقة فيستقر في أعمق أعماق القلوب .

وكما امتاز بالنظرة الإسلاميّة والوعي العميق لواقع المسلمين وحاجتهم ، امتاز بالتفاني التــام في العمــل لهــم وخدمتهم .

زرته في بيت الأستاذ محمد الكامل التونسي –وهو مريض– ودخلت الغرفة التي هو فيها فوجدته ممــدداً علــى السرير متورم الأطراف ، مصفر الوجه ، بادي الإعياء ..

قال : لقد سألت عنك كثيراً ، أين أنت ؟

قلت : كنت مسافراً وقد عدت أمس .

قال : أريد أن تدرس لي ، كيف يمكن أن نهيىء وسائل الطباعة في دمشق للدار الإســلاميّة للتــأليف والترجمــة والنشر

قلت : سأفعل إن شاء الله .

قال : أرجوك أن تهتم كثيراً بهذا الأمر ، فالمسلمون أحوج ما يكونون إلى التعارف بينــهم ، وإلى أن يــدركوا واقعهم ويشخصوا مرضهم ، وإلى أن يعرفوا خصمهم ، ويكتشفوا مقاصده ووسائله ، ليرسموا خطتهم عــن بينــة ، ويتابعوا جهادهم على بصيرة ، فلا تكون انتفاضاتهم ردود فعل عمياء ، ولا تذهب جهودهم هدراً ، ولا يخــدعهم المغرضون عن الغاية والطريق الموصل كما يحدث الآن .. المسلمون بحاجة إلى الوعي الصحيح ، وهذه الدار يمكن أن تكون وسيلة هذا الوعي ..

وبلغ به الإعياء منتهاه ، وانقطع نفسه فسكت عن الكلام .

وقال له رجل في الغرفة ، اترك هذه الموضوعات الآن . ألم ينهك الطبيب عن التفكير والكلام ؟

فالتفت القليبي إليه –مقطباً– وقال :

إنّ هذه الموضوعات أهم عندي من الصحة والحياة .

وذهبت بعد ذلك بأيام لزيارة الأستاذ الهضيبي في بلودان[٢] فسألني :

كيف حال الأستاذ القليبي ؟ فأخبرته باشتداد المرض عليه ، قال :

وماذا يعمل الآن ؟

قلت : إنه يجهد في تهيئة وسائل الطباعة لدار نشر إسلامية في دمشق .

قال : وهو يهز رأسه ويبتسم بحزن : هذا هو ما توقعت ، ثم قال لي : أبلغه -إذا رجعت إلى دمشق- ســـلامي ، وقل له -على لساني- إنّ المسلمين لا يريدون منك الآن إلاّ أن تهتم بنفسك وصحتك ، وتحفظ لهم حياتك الغاليـــة ، فاترك كل ما تقوم به .

ورجعت إلى دمشق ، وذهبت إلى زيارته في المستشفى الجراحي بدوما ، وقد نقلوه إليه لاشتداد المرض عليـــه ، فقال لي :

ماذا تم في الأمر الذي رجوتك فيه ؟

فتشاغلت عن الجواب فقال بعتب :

ألم تدرس الموضوع ؟!

فسكت وأطرقت ثم تشجعت فرفعت رأسي وقلت :

لم لا نؤجل هذا البحث إلى أن تسترد صحتك وقوتك ؟ إنك بحاجة إلى أن تستريح من كل جهد ..

فبدا في ملامحه الدهشة وخيبة الأمل والإنكار ، فاستطردت بسرعة وقلت :

إنّ الأستاذ الهضيبي يسلم عليك وقد حملني إليك رسالة .

قال : وما هي ؟

قلت : إنه يقول لك : إنّ المسلمين لا يريدون منك الآن إلاّ أن تهتم بنفسك وصحتك ، وتحفظ لهـــم حياتـــك الغالية ، فاترك كل ما تقوم به .

فانتقض انتفاضة شديدة وقال :

وما هي فائدة حياتي وصحتي إذا لم أؤد حق الله علي وأقم بواجبي ..

إنني أعيش للعمل في سبيل الله فلا أقبل أبداً أن أترك العمل للعيش .

ثم قال بصوت رزين عميق –وقد ترقرقت في عينيه الدموع–

إنني لأشعر باقتراب نهايتي ، ولدي أشياء أريد أن أقولها للمسلمين ، وأشياء أريد عملها لهم ، و لم يعد في العـــيش فسحة للانتظار ، فلا بد إذن أن أجهد نفسي لتحقيق ما أريد قبل حلول أجلي ولو قتلني الإجهاد قبل الأوان .

وهممت بمراجعته فقال برقة وحزم :

أرح نفسك من المراجعة والكلام فلن يتغير هذا القرار .

إنني لن أترك خدمة عقيدتي للاحتفاظ بهذا الجسد الفاني ، ولن أؤثر سلامتي على أداء رســـالتي .. فـــإذا قـــتلني الإجهاد –كما تخشون– فمرحباً بالموت في طاعة الله .

ولن أستطيع أبداً أن أنسى زيارتي الأخيرة له في الغرفة البسيطة التي سكنها قبيل وفاته على سطح من أسطح حي المهاجرين .

دخلت عليه وهو ممدد على فراشه الرخيص وقد عجز عن الحركة واضطررت أن أنحني عليه ليصل صوته إلي ..

وكان الصراع قد اشتد في المغرب –وما نسي القليبي قط المغرب[٣] ولا انقطع عن التفكير فيه والعمل له يوماً من الأيام– فسألني بصوت خافت منقطع :

ماذا تصنعون من أجل المغرب ؟

قلت : لقد قام الطلاب اليوم بمظاهرات ..

فقطع عليّ الكلام وقال بمرارة :

مظاهرات ! مظاهرات ! .. أنتم لا تقدمون إلاّ المظاهرات والكلمات !! .. وإن حاجة المغرب إلى المال والذخيرة والسلاح .

ثم قال بألم وانفعال :

لقد كتب إلي المجاهدون من المغرب أنهم قد تركوا بيوتهم وليس فيها الشعير فضلاً عن القمح ، وتركـــوا أهلـــهم وأطفالهم بلا طعام ، وإن أحدهم ربما اقتحم المعركة ولقي الجيش الفرنسي وليس معه إلاّ عدد من الطلقات ..

وغلبه الألم والانفعال فصاح :

أسر المجاهدين تموت من الجوع ، والمجاهدون يتساقطون على الموت بلا ذخيرة ولا سلاح ، وهم يطلبون العـــون فلا يلبون إلاّ بالكلمات ! والمقالات ! والمظاهرات ! وأنا –وا أسفاه– مسترخ هكذا على الفراش !

وانقطع نفسه فسكت فترة حتى إذا استراح وعاودته حالته الطبيعية قال بهدوء :

كنت أخبرتك بعزمي السفر إلى منطقة في صحراء ليبيا ، لأيسر إمداد الثورة بالمال والذخيرة والسلاح .

قلت : نعم .

قال : فأنا مسافر بعد أيام .

قلت : لقد كنا رجوناك أن تؤجل السفر ، كيف تسافر وأنت على هذه الحال ؟!

قال : فأنا مسافر بعد أيام .

قلت : لقد كنا رجوناك أن تؤجل السفر ، كيف تسافر وأنت على هذه الحال ؟!

قال : يمكن أن أُحمل حملاً إلى الطائرة ثم أُحمل من الطائرة وأوضع هناك في سيارة وعلى الجمال .. ولسوف أجد في تلك المنطقة من يعرفني ويعينني على القيام بمهمتي ..

وسكتٌ ومات على شفتي كل اعتراض ، لقد كنت أمام (روح) أقوى من التعب والمرض ومن إغراء الحياة ومن كل العقبات .

وبعد عدة أيام .. حُمل الأستاذ القليبي .. ولكن لا إلى الطائرة بل إلى مستشفى المجتهد في الميدان .

وفي الساعة العاشرة من آخر ليلة في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٥٤م كنت مع الأستاذ السباعي في مستـــشفى المجتهد مسرعين إليه وقد بلغنا اشتداد الخطر عليه .

ونقرنا باب غرفته فانفتح وخرج إلينا الطبيب بوجه مكتئب وقال : إنه غائب عن الوعي الآن ، ويحـــسن عـــدم الدخول عليه .. ثم فرج لنا الباب لنراه .

كان مسجى على فراشه وقد مال رأسه إلى اليمين وانسدل جفناه فظهر على صفحة وجهه الهزال .

وكان فمه ينفتح قليلاً وينطبق ، ويرتفع الغطاء على صدره شيئاً وينخفض ، ونسمع صوت تنفسه الثقيل كأنمـــا يجاهد مجاهدة لاستنشاق الهواء ..

واستولى علينا الخشوع والحزن وعقلت ألسنتنا الرهبة .

وقال الأستاذ السباعي أخيراً بصوت لا يريد أن يخرج من الوهن :

أليس هنالك أمل ؟

وحرك الطبيب رأسه حركة تدل على ضعف الرجاء وبدا عليه التردد .. وقال :

إننا نبذل ما وسعنا من الجهد .

وقال الأستاذ السباعي : أرجوكم ألا تتركوا وسيلة ولا تدخروا حيلة .. إنّ هذا الرجل كبير في بـــلاده ، عزيـــز على المسلمين في كل مكان ، وله علينا نحن أيضاً ديون .

وعاد بصري إليه .

وأخذت أملأ العين والقلب من وجهه الأصفر وجبينه النبيل .. أتزود لما أخشاه من الفراق .

وحالت بيني وبين الرؤية الواضحة سحابة دمع فكأنني لا أنظر إلى حقيقة بل إلى خيال ..

أهذا كله حقيقة ؟!

أيمكن أن تكون هذه نهاية القليبي فلا نراه بعد الآن ؟!

أتنطفئ هذه الشعلة في الظلام الدامس ؟!

أيكف عن النبض هذا القلب الذي يمد بالأمل والحياة ؟!

أيموت القليبي في هذه الغرفة في مستشفى المجتهد خلف هذه الجدران السميكة وليس بجواره إلاّ الممرضة والطبيب ؟!!

أيموت بعيداً عن وطنه .. بعيداً عن أهله .. بعيداً عن زوجه وأبنائه .. غريباً هنا في دمشق ؟!!

أهذه هي نهاية المجاهدين الصادقين ؟!!

ولكن لا ، إنّ القليبي لم يكن يؤمن برابطة (الطين) بل برابطة (الدين) فكل بلد إسلامي وطنه ، ونحـــن جميعـــاً إخوانه وأبناؤه ..

وغلبنا العجز فدعونا الله بقلوبنا الواجفة أن يكون مع هذا الرجل العظيم .

وفي اليوم الثاني كنت أسير في جنازة المرحوم القليبي وأنا في غير هذه الدنيا .

كنت معه هو فلم أكد أحس مَنْ حولي ، وما حولي ، ورافقته بخيالي وقلبي وفكري ، ورأيت صور حياته تتتـــابع في عيني حتى تنتهي بي إلى النعش ..

لقد عاش لقضيته و لم يعش عليها ، وعمل لله لا للناس فحمل هذه القضية في كل مكان ، وعمل لها حيث لا تراه عين إنسان .

و لم يكن كهؤلاء الزعماء الذين يعملون للناس حتى إذا نزلوا عن المسرح وانفض المتفرجون خلعوا أردية التمثيـــل ..

لقد جاهد أخلص جهاد ، وضحى أكبر تضحية ، واحتمل أشد ألم ، وبلغ ذروة السمو ونكـــران الـــذات و .. ووصلنا إلى مقبرة (باب الصغير) فوقفنا وتقدم النعش ..

وتكلم الأستاذ سعيد رمضان ، وتكلم الأستاذ التونسي .. ورأيت نفسي أنا أيضاً أتكلم ، وسمعتني أقول بيقين :

ما فقدنا الأستاذ القليبي .

لقد انتقل من عالمنا الخارجي إلى عالمنا الداخلي .

لقد انطوت عليه الجوانح قبل أن ينطوي عليه القبر ، واشتمل عليه التاريخ –قبل أن يشتمل عليه التراب– مـــثلاً رائعاً للنظرة الإسلاميّة الخالصة ، والقيادة الواعية والاستشهاد في الجهاد ..

رحمه الله

(*) السيد محي الدين القليبي :

- من زعماء المغرب العربي .
- ولد في تونس .
- عاش حياته مجاهداً مشردا .
- عمل للإسلام وللمسلمين في كل مكان .
- توفي في دمشق وله من العمر أربع وخمسون سنة .

(١) في دمشق
(٢) أثناء زيارته التاريخية لسوريا سنة ١٩٥٤م
(٣) المغرب العربي الكبير